# الاعتبار بالتاريخ وأهميته في النصوص القرآنية

## ((دراسة موضوعية))

م. م. حيدر عبد العزيز إسماعيل حمد
الجامعة المستنصرية – كلية التربية الأساسية

## المقدمة :

الحمد لله الحنان المنان ، والصلاة والسلام على نبينا محمد سيد الأكوان ، وعلى اله وأصحابه أهل الصدق والعرفان .

أما بعد : الحياة دار ابتلاء للمؤمن وغير المؤمن ، والكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والتزم بشروط الخلافة التي خُلق من أجلها ، والتي تعني إقرار شريعة الله ، والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه ، وأي خروج عن هذه المسيرة ، يعرض صاحبه للخطر والوقوع في مزالق يتعذر عليه تخطيها ، إلا إذا تداركته رحمة الله ، لذلك نرى القران الكريم يكشف النقاب عن تاريخ بعض الشعوب ، الذين عاشوا الماضي في أحقاب متتالية ، فأساءوا حفظ الأمانة ، ولم ينهضوا بأعباء الرسالة ، فحاق بهم عذابه الشديد .

أنها دعوة وبيان للناس جميعاً ، لسبر أغوار التاريخ ، والاستفادة من تجارب من سبق من الأمم والحضارات بدراستها وفهمها ، وتحذير لهم من الاكتفاء بالتاريخ ، كسجل للقصص والروايات ، لتحصيل التسلية والمتعة فقط ، فما كان التاريخ لدى العقلاء الحكماء مجرد قصص تروى ولا حكايات تحكى ، إنما هو مورد ثَّر للعلم والمعرفة والاعتبار .

واقتناعاً مني بأهمية الموضوع ومسيس الحاجة إليه فقد رأيت أن أقدم بحثاً موضوعياً من خلال آيات النصوص القرآنية سميته : (( الاعتبار بالتاريخ وأهميته في النصوص القرآنية )) .

وكان منهجي في البحث أني جعلته بعد المقدمة على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : تعريف الاعتبار والتاريخ لغة واصطلاحا .

والمبحث الثاني : أسباب دراسة علم التاريخ في القران الكريم .

والمبحث الثالث : نماذج من آيات الاعتبار بالتاريخ في القران الكريم .

والخاتمة : تشمل خلاصة البحث واهم النتائج .

ومن الله التوفيق والسداد ...

## المبحث الأول

## تعريف الاعتبار والتاريخ لغة واصطلاحا

### أولاً : تعريف (الاعتبار) لغة واصطلاحاً :

**الاعتبار لغةً** : بمعنى الاتّعاظ والتذكير .

**والعبر**: جمع عبرة وهي كالموعظة مما يتعظ به الإنسان ويعمل بـــه ، و يعتبـــر ليستدل به على غيره [1] .

**واصطلاحاً** : (( الحالة التي يتوصل بها من معرفة المشاهدة إلى غيره )) [2] .

### ثانياً : تعريف (التاريخ) لغة واصطلاحاً :

**التاريخ لغة** : الوقت مطلقاً ، يقال : أرخ الكتاب ليوم كذا وقته [3] .

**واصطلاحاً** : (( ذكر ابتداء مدة الشيء ليعرف بها مقدار ما بين ذلك الابتداء وبـــين أي وقت أريد منه )) [4] .

أما علم التاريخ : فهو (( معرفة أحوال الطوائف وبلـــدانهم ورســـومهم وعـــاداتهم وصنائع أشخاصهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك )) .

وموضوع علم التاريخ : (( أحوال الأشخاص الماضـــية مـــن الأنبيـــاء والأوليـــاء والعلماء والحكماء والملوك والشعراء وغيرهم )) .

والغرض من معرفة علم التاريخ : (( الوقوف على الأحوال الماضية )) .

وفائدة علم التاريخ : (( العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليحترز عن أمثال ما نقل من المضار ويستجلب نظائرها من المنافع )) [5] .

## المبحث الثاني

## أسباب دراسة علم التاريخ في القران الكريم

خلق الله الإنسان وجعل له عمراً لا يساوي شيئا في مقابل الأزمان والعصور التي عاشها أسلافه منذ بدء الخليقة .

هذه الأزمان ولّدت لدى الإنسان حنينا إلى معرفة ما كان عليه أسلافه ، وكيف كانت حياتهم ، والأحداث التي أثرت على حياتهم وغيرت مجرياتها ؛ لذلك تولد (علم التاريخ) .

وهو من العلوم القديمة قدم الخليقة ، نقل بالرواية حتى عرف الإنسان الكتابة فدونه، واهتمت به الأمم فلا تجد أمة تحيا من دون تاريخ . وقال القاضي الارجاني[1] :

**إذا علم الإنسان أخبار من مضى توهمته قد عاش أول الدهر**

يقول ابن الأثير: (( لقد رأيت جماعة ممن يدعي المعرفة والدراية ، ويظن بنفسه التبحر في العلم والرواية يحتقر التواريخ ويزدريها ، ويعرض عنها ويلغيها ظنا منه أن غاية فائدتها إنما هو القصص والأخبار ، ونهاية معرفتها الأحاديث والأسمار ، وهذا حال من اقتصر على القشر دون اللب نظره ، ومن رزقه الله طبعا سليما وهداه صراطا مستقيما علم أن فوائدها كثيرة ومنافعها الدنيوية والأخروية جمة غزيرة )) [2] .

ويقول ابن خلدون : (( إن فن التاريخ فن عزيز المذهب ، جم الفوائد ، شريف الغاية ؛ إذ هو يوقفنا على أحوال الماضين من الأمم والأنبياء في سيرهم ، والملوك في دولهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يروم أحوال الدين والدنيا ))[3] .

وقد نحا المسلمون في تاريخهم منحى شرعياً حين ربطوه بالقضاء والقدر، واعتقدوا الحكمة الإلهية في حوادثه سواء كانت خفية أو ظهرت وبينت .

وهناك سؤال يطرح نفسه في هذا المجال هو : ما أسباب دراسة علم التاريخ والفوائد المرجوة من ذلك في القران الكريم ؟ :

**السبب الاول ــ أخذ العظة والعبرة :**

لقد ورد في القران الكريم تاريخ وآثار كثيرة ؛ فقد قص سبحانه وتعالى علينا قصصاً كثيرة عن الأنبياء والمرسلين ، والطغاة المتجبرين أبانت حال المرسلين (عليهم السلام) وما كابدوا من مشقة وعنت وتكذيب واستهزاء وقتل في سبيل إيصال الرسالة الإلهية إلى الخلق ، وما آل إليه مصير المكذبين ، فقد سلط الله عليهم العقوبات الدنيوية التي أهلكتهم شر مهلك ، فصاروا مثلا لمن بعدهم وقد جاء على لسان نبي الله شعيب عليه السلام محذرا قومه : ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيد ﴾ [1] .

ويقول سبحانه محذرا الكافرين : ﴿ **أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ** ﴾ [2] .

كما بين سبحانه وتعالى مصير الطغاة والمتجبرين كفرعون وهامان وقارون ؛ فهذا فرعون بعد أن أدركه الغرق وحانت ساعة الاحتضار وهو في ذل وصغار يقول تعالى في شأنه : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَاْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ** ﴾[3] بعد أن كان يقول :﴿ **أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** ﴾ [4] . وقد بين سبحانه وتعالى أمثلة كثيرة فيما جرى للأمم المكذبة في مواضع كثيرة في القران الكريم .

**السبب الثاني ــ عظمة الله سبحانه وتعالى :**

من قرأ التواريخ وجد أن مصرفها عظيم حكيم يدع الظالم ؛ فإذا أخذه لم يفلته وان طال الزمان وكاد اليأس يدخل أهل الإيمان ، كما انه سبحانه رتب سننا كونية فيها حكم بالغة ، وعبر لا تتبدل بتبدل الزمان والمكان بل تعيد نفسها .

فالدولة المتجبرة الظالمة لا بد أن تسقط وتدول وان رأى الناس بعد ذلك ، فكم من دولة كانت تضم أجنحتها بلادا كبيرة وخلقا ، فلما طغت وظلمت نفسها ورعيتها وجيرانها سقطت وتفرق حكامها وأهلها ، فلم يبق لنا منها إلا الذكر والأحداث المسطرة في بطون الكتب ، والأمثلة على ذلك كثيرة ؛ فالفراعنة بنو حضارة لا زالت تبهر العقل بأهراماتها ؛ أين هي ؟ لقد ذهبت مع من ذهب وأصبحنا نتعجب من هلاكها واندثارها بمقدار تعجبنا من براعتها وعظمتها . قال الله تعالى : ﴿ **وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيد** ﴾ [1] .

وقال أيضاً جل جلاله :﴿ **كَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُواْ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً فَاسْتَمْتَعُواْ بِخَلاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُواْ أُوْلَـئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ {69} أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ**﴾[2] .

**السبب الثالث ــ حفظ هوية الأمة :**

إن هذا السبب من أهم أسباب دراسة علم التاريخ في هذا الزمان ؛ فهذا التاريخ يحفظ هوية الأمة ؛ فمن ليس له تاريخ فهويته مبتورة وليس له جذور ؛ فالشجرة إن كانت من غير جذور لا شك أنها ستموت وتقتلعها الرياح ، ونرى اثر ذلك فيمن تدثروا بلباس العصرية والإنسانية ؛ فهم أصبحوا تابعين للغرب ؛ لأنهم أنبتوا عن تاريخهم ؛ وهذا ما يريده ويسعى إليه الأعداء ؛ ففي الشام أحيا لهم الأعداء الفينيقيين والكنعانيين فأصبحوا يفتخرون بهم وينتمون إليهم ، بل يربطون حقوقنا في ارض فلسطين السليبة بهم . وفي مصر أحيا الأعداء الفراعنة بل نقبوا عن أثارهم وأصبحوا يسمون أهل مصر بأحفاد الفراعنة ، وأصبحوا يتحدثون عن حضارة مصر ذات الخمسة آلاف سنة . وفي العراق تغنوا بالآشوريين وشريعة حمورابي التي يجعلونها أول قانون مدني على ظهر البسيطة ، وتحدثوا عن الحضارة البابلية وغيرها من الحضارات التي قامت في العراق . وفي جزيرة العرب بعثوا ممالك اليمن من مملكة معين إلى مملكة سبأ . وفي المغرب العربي نفخوا الروح في القومية الامازيغية وحرصوا على أن يدونوا لغتهم وان يوجدوا لهم تاريخاً قبل الإسلام ، رغم أنهم مسلمون ويعدون أنفسهم عربا كما يعدهم العرب منهم نظرا للتمازج الذي حدث بينهم منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً [3] .

وجميع ما احيوا من تواريخ البلاد الإسلامية تواريخ أقوام طغاة ظالمين كانوا يشركون بالله فأهلكهم بذنوبهم فأصبحوا في ذمة التاريخ ، ولكن كما يقال في المثل : ((لأمر ما جدع قصير انفه)) أنهم بهذا يقطعون صلتهم بتاريخهم المرتبط بالإسلام ، ويحاولون أن يصلوهم بمن عاش في هذه الأرض في العصور الغابرة من الأمم الكافرة لينسلخوا من الإسلام ، بل ليرتبطوا بالكفر ممثلا في تاريخهم الجديد المزعوم . قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ** ﴾ [4] . فارجعوا أيها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها إلى الإسلام وهدوا إلى طريق الحق والى طريق مستقيم وانظروا إلى أعداءكم كيف يصنعون لأنفسهم حضارات لا أصل لها وليس لها وجود إلا السلب والاغتصاب وسفك الدماء فاعتبروا يا أولي الأبصار .

**السبب الرابع ــ الحكم على الدنيا :**

يقول ابن الأثير : (( إن العاقل اللبيب إذا تفكر فيها ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نكباتها إلى أعيان قاطنيها ، وأنها سلبت نفوسهم وذخائرهم ، وأعدمت أصاغرهم

وأكابرهم، فلم تُبقِ على جليل ولا حقير ، ولم يسلم من نكدها غني عشقها وذاب فيها ، ولا فقير زهد فيها واعرض عنها واقبل على التزود للآخرة ، ورغب في دار تنزهت عن الخصائص )) [1] .

فالنظر إلى سيرة الرسول (صلى الله عليه وسلم) ؛ ففيها المثل الأعلى على احتقار الدنيا ، يقول وقد دعاه أصحابه (رضوان الله عنهم أجمعين) إلى بعض اللين في العيش : (( ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها )) [2] .

وهذا طلحة بن عبيد الله رضوان الله عليه يؤتى إليه بمال كثير فيفرقه وهو في مجلسه ولم يبق معه قليل ولا كثير منه [3] .

أما عمر بن عبد العزيز فقد ترك الدنيا وترك معها أولاده وليس لهم مال وهو خليفة وبيده الخزائن والأمر والنهي [4] .

والإمام احمد بن حنبل (رحمه الله )عرف الدنيا وحقارتها وأنها لا تساوي عند الله جناح بعوضة فاعرض عنها ، وكان يعيش على الخبز رغم جوائز الخليفة التي يتمنى من أن يقبلها .

**السبب الخامس ــ قراءة الأحداث :**

ذلك أن أحداث التاريخ تتكرر ؛ فهي سنن كونية تكرر مرات ومرات ؛ فما يجري أمامك لا شك انه قد جرى نظيره قبل ذلك .

يقول البيهقي : (( لا توجد حادثة لم يحدث مثلها من قبل)) [5] .

ويقول ابن الأثير : (( انه لا يحدث أمر إلا تقدم هو أو نظيره )) [1] .

ويقول نيو تركررش : (( إن التاريخ كله تاريخ من قبل )) [2] .

وفي عالمنا المعاصر نوقن أن نهاية الحضارة الغربية قريبة قربا تاريخيا ؛ فقد دفعت حضارات وإمبراطوريات كبيرة ثمن انغماسها في الشهوات والملذات واطراح الأخلاق ، ناهيك عن التوحيد ، كالإمبراطورية الرومانية ، والبيزنطية ، والفرعونية ، كما هوت دول ؛ لأنها تعجرفت وتجبرت وتعدت على غيرها ورأت أن لا شيء فوقها كما تفعل أمريكا اليوم في العالم . يقول سبحانه عن قوم عاد :﴿ **أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ {128} وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ {129} وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ {130}فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ [3] . فصب الله عليها شآبيب العقاب فأصبحت كأمس الذاهب .

ولا نشك لحظة أن التاريخ يعيد نفسه في صحوة الأمة ورجوعها إلى قيادة العالم نحو التوحيد والسلام ؛ فقد أفاقت قبل تسعمائة سنة على غزو صليبي غادر أكل الأخضر واليابس ، فلملمت أطرافها وطردتهم شر طردة ، بل نقلت المعركة إلى عقر دارهم ، فقرع أبطالها أبواب (ڤيينا) في معقل النصرانية الوثنية أوروبا ، وها نحن اليوم نرى إرهاصات تلك الصحوة ولعلها تؤتي ثمارها قريباً فنرى المستعمر المتسلط المتبجح يهرب كما هرب من تسعة قرون [4] .

**السبب السادس ــ التخلق بالصبر والتأسي بالصابرين :**

وهو سبب مهم ؛ فالصبر حث عليه ديننا . يقول تعالى :﴿ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾[5]، وأمام الصابرين نبينا محمد (صلى الله عليه وسلم) .

يقول ابن الأثير : (( ومنها التخلق بالصبر والتأسي ، وهما من محاسن الأخلاق ؛ فان العاقل إذا رأى أن مصاب الدنيا لم يسلم منه نبي مكرم ولا ملك معظم ولا احد من البشر علم انه يصيبه ما أصابهم وينوبه ما نابهم ، ولهذه الحكمة وردت القصص في القران المجيد )) [6] .

ويقول الثعلبي : (( ومنها قصص التهذيب والتأديب لامته صلى الله عليه وسلم ، ومنها قصص التأسي بهم فيما أثنى الله عليهم به )) [1] .

وقد كابد المرسلون المشاق من تكذيب وامتهان وازدراء ، وقتل منهم في سبيل الدعوة من قتل ؛ فهم الأسوة والقدوة لنا .

وفي قصة يوسف (عليه السلام ) اكبر دليل على عاقبة الصبر؛ فقد صبر وتمنى السجن ودخله مدة حتى إذن الله بخروجه منصوراً مؤيداً قال تعالى :﴿ **لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَاب** ﴾ [2] .

والتاريخ مليء بقصص الصابرين ، فهذا الوزير المهلبي ، يتمنى الموت من الفقر والإقلال وسوء الحال فيقول :

**ألا موت يباع فاشتريه فهذا العيش ما لا خير فيه**

**إذا أبصرت قبرا من بعيد وددت لو أنني مما يليه**

ويتمنى أن يأكل لحماً وكان معه صديق له فاشترى لحما وأطعمه إياه ، وتدور الأيام ويتولى المهلبي الوزارة والأمر والنهي حتى أن مائدته مليئة بأصناف الطعام ويأكل كل لقمة بمعلقة من زجاج [3] .

**السبب السابع ــ معرفة نعم الله وتقديرها :**

من قرأ علم التاريخ وهو في دَعَةٍ علم مقدار ما قاساه من قبله من الشدائد وشظف العيش وكَلَب الزمان وانعدام الأمن والأمان ، فلا بد أن يعرف مقدار نعم الله التي لا تحصى ، فيقدرها بالشكر للمنعم الوهاب .

ولذلك كان الصحابة ممن أدرك الشدة والعناء مستحضرين لها دائما ؛ فقد بكى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وقد رأى ما يعيش فيه وتذكر مصعب بن عمير رضي الله عنه لما لم يجدوا له كفناً يواري جميع بدنه [4] .

فقد مرت على بعض بلاد المسلمين شداد المعيشة القاسية والأمن المعدوم وكانوا يهاجرون للعمل في البلدان البعيدة ويقومون بإعمال يستنكفون منها في بلادهم ، فلما دار الزمان صب الله عليهم من نعمه فأصبحت البلاد مطلب الكثيرين ، ونعموا بسعة العيش ونضارته وبالأمن والاستقرار .

فيجب عليهم شكر هذه النعم ؛ لان النعم بالشكر تدوم قال تعالى : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَـكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ {96} أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَآئمُونَ {97} أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ {98} أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ اللّهِ فَلاَ يَأْمَنُ مَكْرَ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ**﴾ [1] .

**السبب الثامن ــ التشبه بالصالحين والإعلام :**

يقول الإمام السخاوي عن فوائد علم التاريخ : (( التشبه بذوي المروآت والاجواد والأوفياء والفرسان والشجعان )) [2] .

إن من أسباب هداية الإنسان التأثر بغيره ممن سبقه من أهل الصلاح والتقوى والمروءة في جميع جوانب حياتهم ؛ فإذا اطلع على سيرهم وأحوالهم تاق إلى التشبه بهم ومحاكاتهم فتحول إلى إنسان أخر ، وهذا يساعد المربين فيجعلون التاريخ مدرسة تربوية ينهل المربون في كل زمان .

فكم من مسلم تأثر بسيرهم وحاول أن يسير على خطاهم ، وكم تأثر مسلم بضروب الشجاعة والإقدام التي يقرؤها ، فترسخ فيه روح الحماس والشجاعة ، لذلك حرص الناس بجميع مذاهبهم على السير والتراجم ، وصنف المسلمون فيه كتبا لا حصر لها .

## المبحث الثالث

## نماذج من آيات الاعتبار بالتاريخ في القران الكريم

**النموذج الأول** : قال الله تعالى : ﴿ **قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ {137} هَـذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {138} وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ {139} إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ** ﴾ [1] .

### ـ في رحاب الآيات القرآنية ـ

إن مشيئة الله في خلقه تسير وفق سنن رشيدة حكيمة ، وكل من سار عليها ظفر ، ومن حاد عنها خاب وخسر ، وفي هذه الآية الكريمة مراجعة تاريخية ، ووقفات دراسة وتأمل لحضارات انهارت ، وأمم اندثرت ، وشعوب تفرقت وتمزقت بعدما اخذ بها الغرور كل مأخذ ، فخرجت عن الطريق السوي ، لذلك جاء في الآية الكريمة تحذير وإنذار بسوء العاقبة ، لكل من ينحرف عن سنة الله تعالى ، ويتجاوز حدود إنسانيته وعقلانيته .

وتلفت الآية نظرنا إلى من سبقنا من الأمم ، لأخذ العبرة والموعظة مما حل بهم بسبب إعراضهم عما جاءهم من الحق ، وقياس ما لدينا على ما كان لدى غيرنا .

فالقران الكريم يربط ماضي البشرية بحاضرها ، ليلفت أنظارها إلى مستقبلها ، وهو يدعو الناس عامة إلى السير في الأرض ، لان الأرض مسرح الحياة البشرية ، والحياة فيها كتاب مفتوح تكتب فيه الأحداث ، وتتأمله الأبصار ، وتجول فيه الأفكار ، فترى فيه الآثار والحضارات القديمة، ما نقف أمامه بإجلال وإكبار ، مأخوذين بروعة الفن وبراعة الصنعة ، على ما نحن عليه من التقدم العلمي والتقني .

والقصد من النظر ليس الإعجاب بتلك الآثار ، وإنما التفكير بقوة الباني وجبروته ، وكيف كان مصيره ومصير حضارته ، لقد طواه الزمن وتجاوزته الأيام وكأنه لم يكن ، فلم ينفعه من ذلك شيء وأصبح عبرة لمن أراد أن يعتبر .

وقد أورد القران الكريم كثيرا من هذه السير والآثار في مواضيع متفرقة منه ، حدد مكان بعضها وزمانه وأشخاصه ، واكتفى بالإشارة إلى بعضها الأخر دون تحديد أو تفصيل .

وفي هذه الآيات يشير هذه الإشارة المجملة ليصل منها إلى نتيجة عامة ، وهي أن ما جرى للمكذبين بالأمس يمكن أن يجري مثله للمكذبين اليوم وغداً .

والقران الكريم فيه بيان شاف للناس ، وهداية لطريق الرشاد ، وما كان الناس ليهتدوا لولا هذا البيان الهادي ، ولكن طائفة معنية هي التي تجد فيه الهدى والموعظة وتنتفع به ، وهي طائفة المتقين الذين انشرح صدرهم للإيمان ، وترجموا الايمان إلى عمل.

والمؤمن التقي حق التقوى هو في المقام الأعلى دائما ، فان حدث ما يخالف ذلك فعلية أن يراجع صحة إيمانه ، ولكي يتبوأ تلك المكانة العالية ، عليه إلا يتهاون بالعمل الجاد الدؤوب ، وان يحزن على ما أصابه لئلا يصيبه الوهن والحزن .

وقد قضى قانون الله أن يجعل العاقبة للمتقين الذين لا يحيدون عن شريعته وتعاليمه، وإنما نهى عن الحزن على ما فات ؛ لأنه يفقد الإنسان شيئا من عزيمته .

والأجدر أن يعالج المرء مشاكله وآلامه بالعمل ، مع العزيمة الصادقة والحزم والتوكل على الله ، حتى يظفر بما يطلب ، ويستعيض عما قد يخسر [1] .

ومن الثابت أن تقلب الناس بين الرخاء والشدة يكشف عن معادن نفوسهم ، وطبائع قلوبهم ، ودرجة صفائهم ، ومدى صبرهم ، ومستوى ثقتهم بالله واستسلامهم لقدرته .

فالله تعالى يعلم ما تنطوي عليه الصدور ، ولكن الأحداث وتداول الأيام تكشف المخبوء في نفوس الناس ، وتجعله واقعا ملموسا في حياتهم ، وتحول الإيمان إلى عمل ظاهر ، فهي محك لا يخطىء ، وميزان لا يظلم ، والنفس المؤمنة هي التي تصبر على السراء والضراء ، وتتجه إلى الله في الحالتين ، وتوقن أن ما أصابها من الخير والشر هو تقدير من الله تعالى .

وكما أن الفرد مبتلى ، فكذلك هي الأمم ، فكل ولادة تسبقها الآم المخاض ، ولا يمكن لأمة أن تبنى دون تجارب مريرة ، تجعل منها امة قوية متماسكة ، وبمقدار تماسكها تواصل مسيرتها بالشكل السليم ، وإلا فلا يستبعد أن يسحب المجد منها ويعطى لغيرها ، وهذا قانون الله في كل متهاون مستهتر ، قال تعالى :﴿ **وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾ [2] .

والمؤمن مطالب أثناء مسيرته بالجهاد ، وهو بذل الجهد للتحصيل والبناء العلمي والحضاري ، ومجاهدة أهواء النفس ، والتضحية وربما الاستشهاد في سبيل المبدأ ، وقد

ميز الله الشهداء واصطفاهم وكرمهم وخصهم بقربه ورحمته ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( إن في الجنة مائة درجة أعـــدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض)) [1] .

وهذه المرتبة لمن يجاهد بكل ما يملك ليرسي قوانين الله ، كما بلغهـــا رســـول الله صلى الله عليه وسلم ، وليكون المنهج الإلهي هو المنهج السائد ، وهو الذي يحكم ســـلوك الناس جميعا ، فإذا اقتضى الأمر أن يموت في سبيله فهو شهيد .

والشهيد هو المشهود له بالجنة ، والشهداء عامة ، هم من اخلصـــوا فـــي إيمـــانهم وأعمالهم ، ولم يظلموا أنفسهم بمخالفة أوامر الله ونواهيه . وهم الذين يشـــهدون بصـــحة الدين قلبا وقالبا ، قولا ومنهجا ، ظاهرا وباطنا ، وكما أن الله تعالى اصطفاهم ، فقد ابعد من كنفه الظالمين ، الذين تعدوا قوانينه أو حولوها لمنافعهم الشخصية .

ولا يخفى إن الآيات جاءت بمناسبة خسارة المسلمين إحدى المعارك الحربية ، ضـــد المشركين وهي غزوة احد ، حيث انزلها الله تعالى تعزية للمسلمين ، وتطييبا لخـــاطرهم من جهة ، كما جاءت من جهة أخرى درساً وعظة ؛ بان قانون الله ثابت في أن من خالف أمره أذاقه وبال مخالفته . وبعد حصول الهدف من هذا الدرس القاسي ، يعدهم بالنصـــر والتأييد إن هم أصلحوا الفساد ، واستقاموا على جادة الحق الذي ارتضاه لهم .

وتتابع الآيات في المأساة وتطييب الخاطر ، حيث تذكرهم بأنهم إن مسهم ضر مـــن هذه الموقعة ، فقد مس أعداءهم ضر مثله ، والله تعالى يقدر مثل هذه الأقدار ، ليظهـــر فضل المؤمنين الصادقين ويتخذ منهم شهداء مكرمين [2] .

وسبب نزول الآيات : ما أخرج الطبري من طريق ابن المبارك عن يـــونس عـــن الزهري قال كثر في أصحاب النبي القتل والجراح حتى خلص إلى كل امرئ منهم اليأس فأنزل الله تعالى القرآن فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما أسى به قوما من المســـلمين كـــانوا قبلهم من الأمم الماضية[3] .

**النموذج الثاني :** قال الله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْاْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاء عَلَيْهِم مِّدْرَاراً وَجَعَلْنَا الأَنْهَـــارَ تَجْـــرِي مِـــن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْناً آخَرِينَ** ﴾ [1] .

ـ في رحاب الآيات القرآنية ـ

الحياة دار ابتلاء للمؤمن وغير المؤمن ، والكيس من دان نفسه ، وعمل لما بعد الموت ، والتزم بشروط الخلافة التي خُلق من أجلها ، والتي تعني إقرار شريعة الله ، والعمل بمقتضى أوامره ونواهيه . وأي خروج عن هذه المسيرة ، يعرض صاحبه للخطر والوقوع في مزالق يتعذر عليه تخطيها ، وإلا إذا تداركته رحمة الله .

لذلك نرى القران الكريم يكشف النقاب عن تاريخ بعض الشعوب ، الذين عاشوا الماضي في أحقاب متتالية ، فأساءوا حفظ الأمانة ، ولم ينهضوا بأعباء الرسالة السماوية فحاق بهم عذابه الشديد .

إن تاريخ الأمم مدرسة يجب أن يلتحق بها كل إنسان مؤهل لقيادة شعب ، أو يعتقد نفسه انه سيتحمل مسؤولية تأريخية ، أياً كان نوع هذه المسؤولية .

وان تكون دراسته لهذا التاريخ دراسة علمية دقيقة وعميقة ، ليعتبر بعبرها ويتعظ بمواعظها ، وذلك من خلال تعرف أسباب ازدهار الأمم وأسباب انهيارها .

وقد ذكر القران الكريم وقائع تاريخية ثابتة ، شارحاً أسباب تداعي دول كانت قوية اشد القوة ، ومنيعة اشد المنعة ، وعلى حالة رفيعة من الازدهار والرخاء ، فانجرفت في تيار الرفاهية والتراخي عن حمل الأمانة العلمية والأخلاقية والروحية ، فتداعت واندثرت في غياهب الماضي .

إن المسؤولية في ازدهار دولة أو انهيارها تقع في الدرجة الأولى على عاتق راعيها ، لأنه الموجه لها والمنظم لقواها .

وان مهمة الباني الحكيم أن يستفيد من قوى الشعب العاملة، وان يوجهها نحو الإنتاج والبناء من اجل أن يعم الخير الجميع .

وان يحصن نفسه من الفتن التي يمكن أن تؤثر على شخصيته ، وتجعله فريسة للشهوات والأهواء ، ومنها فتنة المال والنساء ، وفتنة القصور والخدم ، ولذائد الطعام والشراب . وتحقق مسؤولية الحاكم الأخلاقية ، بأن يبدأ بنفسه فيكبح جماح شهواتها ، وينشر العدل والإخاء بين الجميع ، محيطا نفسه بالحاشية الصالحة ، وان ينشر العلم ويحارب الجهل والخرافات ، وان يعيش كما تعيش رعيته حتى يشعر بهم وبمشاكلهم ، ويكون قدوة صالحة لهم .

**وصفوة القول** : أن كل خروج عن الأطر التي رسمتها السماء يعتبر ذنباً ، وكل ذنب نتمسك به ، ونتركه يتشبث بنا ، ويشوه فطرتنا البكر ، ويفسد أخلاقنا ، فانه ذنب مهلك ، وليس الله بعاجز عن إهلاك قوم راغبين عنه ، واستبدالهم بآخرين يحبهم ويحبونه، والأمثلة في القران كثيرة ، فمرة يأخذ الله الظالمين بعذاب من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، ومرة يأخذهم بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، ومرة يذيق بعضهم بأس بعض ، فلا يأمن بعضهم بعضا وتضعف شوكتهم ، ويسلط الله عليهم عبادا له ــ طائعين أو عصاة ــ يقتلعونهم مما مكنوا فيه ، ثم يستخلف الله العباد الجدد ليبتليهم بما مكنهم فيه ، وهكذا تمضي سنة الحياة ، والسعيد من أدركها ، فعمل بعهد الله فيما استخلف فيه [1] .

**النموذج الثالث** : قال الله تعالى :﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [2] .

**ــ في رحاب الآيات القرآنية ــ**

تؤكد هذه الآية الكريمة أن للإنسان بصرا لرؤية الأمور المادية ، وبصيرة لرؤية الأمور الروحية ، وان من فقد البصر المادي ، وظلت بصيرته متفتحة ، فهو خير ممن فقد بصيرته ولو احتفظ ببصره المادي ، لان الثاني هو الأعمى الحقيقي . فإدراك الحس بالله لا يمكن أن يحصل إلا من خلال القلب ، فإذا تفتحت عيون القلب رأت ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ممن لا يملك هذه البصيرة . فصاحب البصيرة يرى نور الطاعة ، وظلام المعصية ، يرى جمال أنوار الله ، بل يرى الأمور كلها من خلال شرع الله تعالى ، فتسمو أحاسيسه ، وتقوى همته لإنقاذ الخلائق من براثن الجهل والفقر والظلم .

والآية الكريمة تفتح عيون المكذبين بآيات الله ،الجاحدين بقدرته ، لينظروا إلى ما حل بأسلافهم ممن كذبوا رسل الله كعاد وثمود وقوم لوط ، وقوم شعيب وغيرهم ، ويروا ما حل بأوطانهم ومساكنهم ، ويسمعوا بآذانهم أخبارهم ، فيتفكروا ويتدبروا ويعتبروا بمصارع القوم ، لعلهم يرجعون إلى ربهم ، ويعقلون آياته المبثوثة في الأفاق .

ولكن أنى لهم ذلك ، وقد عميت بصائرهم ، وسوروا قلوبهم بأسوار غليظة ، تمنع نور الإيمان من التسرب إلى حجرات هذه القلوب وإزالة ظلامها ، بانغماسهم في المعاصي ، وتكذيبهم رسل الله ، واستهزائهم بآياته ودلائله ؟ .

قال احد الصالحين : (( لكل إنسان أربع أعين : عينان في رأسه لدنياه ، وعينان في قلبه لآخرته ، فان عميت عينا رأسه وأبصرت عينا قلبه لم يضره عماه شيئا ، وان أبصرت عينا رأسه وعميت عينا قلبه لم ينفعه نظره شيئاً )) .

إن العاقل يجتهد في تصفية سريرته وجلاء قلبه ، وكشف الغطاء عنه بكثرة ذكر الله تعالى ، وقد روي أن عمر بن الخطاب قال : (( لا تكثروا الكلام في غير ذكر الله فتقسو قلوبكم ، والقلب القاسي بعيد من الله )) ، وقيل : ((من لم يأنس بحديث الله عن حديث المخلوقين ، فقد قل عمله ، وعمي قلبه ، وضاع عمره)) ، وقيل أيضا : (( دواء القلب خمسة أشياء : مجالسة الصالحين ، وقراءة القران ، وأخلاء البطن ، وقيام الليل ، والتضرع عند الصبح)) . وهذا كله يفتح البصيرة ويزيدها قدرة على رؤية الحقيقة والبعد عن الخرافة والوهم [1] .

وجاء في الدر المنثور : أخرج ابن أبي الدنيا في كتاب ((التفكر)) عن ابن دينار قال أوحى الله إلى موسى عليه السلام أن اتخذ نعلين من حديد وعصا ثم سح في الأرض فاطلب الآثار والعبر حتى تحفوا النعلان وتنكسر العصا . وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة في قوله : ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ ، قال : ما هذه الأبصار التي في الرؤوس فأنها جعلها الله منفعة وبلغة وأما البصر النافع فهو في القلب . وذكر : أنها نزلت في عبد الله بن زائدة يعني ابن أم مكتوم[2] .

وعن عبد الله بن جراد قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (( ليس الأعمى من يعمى بصره ولكن الأعمى من تعمى بصيرته)) [3] .

**النموذج الرابع :** قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ (76) وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ [4] .

**ـ في رحاب الآيات القرآنية ـ**

أمثال قارون كثر على مر العصور والأيام ، ولكن نسبة الصفات القارونية فيهم تختلف من شخص لآخر ، فبعضهم يصبح قارون بأقل الثروات ، فتنقلب أخلاقه ، وتتغير مصداقيته ، ويبغي على من حوله تعديا وجورا ، وبعضهم الآخر يملك ما يداني ثروة قارون ، فلا يزيده ذلك إلا تواضعا وخشية لله .

أما قارون موضوع هذه الآيات فكان ابن عم موسى (عليه السلام) ، وكان ممن امن بالله تعالى ، وكان اقرأ بني إسرائيل للتوراة ، وسمي المنور لحسن صورته .

ثم تغير حاله بسبب الغنى ، حيث ملك من الثروات الشيء الخيالي ، حتى أن مفاتيح الخزائن التي وضع فيها كنوزه ، هي من الكثرة ، بحيث تحتاج إلى العديد من الرجال الأقوياء لحملها ، فما بالك بالكنوز ذاتها ؟؟ ومع ذلك ، فمن سياق الآيات نجد انه كان هناك في سالف العصور من هو اشد غنى وثروة وقوة منه ، فماذا كان مصير أولئك البغاة الجبارين ، وماذا نفعتهم أموالهم وذهبهم وفضتهم وحيلهم ؟؟ .

وهل تقف هذه الثروات حائلا بين أصحابها وبين عذاب الله وبين عذاب الله وغضبه ؛ إذا لم تستثمر في وجوه الخير والإحسان؟ . على أن المصلحين لم يتركوا قارون يغرق في النعيم وينسى حقوق ربه فقال له : ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ، وفي هذا القول خلاصة ما في المنهج الإلهي القويم من قيم وخصائص ، تجعله متميزا متفردا بين سائر مناهج الحياة ؛ لا تفرح فرح الزهو المنبعث من الاعتزاز بالمال والاحتفال بالثراء ، والتعلق بالكنوز ، والابتهاج بالملك ؛ لا تفرح فرح الذي يستخفه المال، فيشغل به قلبه ، ويطير له لبه ، ويتطاول به على العباد ، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ ، فهم يردونه بذلك إلى الله الذي لا يحب الفرحين المأخوذين بالمال ، المتطاولين بسلطانه على الناس ، كما أن الله لا يحب الفرحين بنعمه المتناسين فضله وكرمه [1] .

ويوجه الله عباده جميعا الوجهة المعتدلة الصحيحة ، التي توازن بين الدنيا والآخرة، ليستعملوا ما وهبهم إياه من المال في طاعته ، والتقرب إليه بأنواع القربات التي يحصلون بها على الثواب في الدنيا والآخرة ، وألا يتركوا حظهم من لذات الدنيا الكامنة ، في مآكلها ومشاربها وملابسها ، لان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (( إن لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا)) [2] .

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي الذي يعلق قلب صاحب المال بالآخرة ، دون أن يحرمه الأخذ بقسط من متاع الحياة الدنيا ، بل يحض على هذا ، ويكلفه إياه تكليفاً كي لا يزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها .

لقد خلق الله طيبات الحياة ، ليستمتع الناس بها ، وليعملوا في الأرض على توفيرها وتحصيلها ، فتنمو الحياة وتتجدد وتتحقق خلافة الإنسان على هذه الأرض ، على

أن تكون وجهتهم هي الآخرة ، فلا ينحرفون عن طريقها ، ولا ينشغلون بالمتاع عن تكاليفها ، والمتاع في هذه الحالة ، لون من ألوان العطاء الإلهي يستوجب الشكر للمنعم ، وتقبل عطاياه ، والانتفاع بها ، ففي ذلك طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى .

إن الزهد الحقيقي يكمن في الامتناع عن الاستئثار بالنعم وعن الرغبة في كنزها ، وليس من الزهد في شيء الامتناع عن الكسب الحلال ، وتعطيل القوى ووأد المواهب ، بل هو البطالة والكسل والخمول وتضييع المنح الإلهية .

وهكذا نجد أن هذا المنهج يحقق التعادل والتناسق في حياة الإنسان، ويمكنه من الارتقاء الروحي الدائم، من خلال حياته الطبيعية المتعادلة، التي لا حرمان فيها ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة.

فالمال هبة من الله وإحسان ، فليقابل بإحسان التقبل ، وإحسان التصرف ، والإحسان به إلى الخلق وإحسان الشعور بالنعمة ، وإحسان الشكر عليها ؛ فلا يستعمل للفساد في الأرض والظلم ، ولا يشترى به العدوان فتمتلئ صدور الناس بالحقد والبغضاء، ولينفق في وجهه الصحيح ، وفي المصارف التي أمر الله بها ، فالله تعالى لا يحب المفسدين في الأرض ، كما انه لا يحب الفرحين المتكبرين .

ولما وجهت النصيحة إلى قارون كان موقف غيره من المتسلطين ، فادعى بأن ما أوتيه ، كان بسبب علمه وجهده ، ناسيا أو متناسيا بان الله تعالى هو الذي منحه طاقات العلم والعمل ، وأعطاه الصحة والقوة ، وبها جميعا تمكن من جمع هذا المال الوفير .

أنها قولة المغرور الذي ينسى مصدر النعمة وحكمتها ويفتنه المال ، وهو نموذج متكرر في البشرية ، فكم من الناس من يظن أن علمه وجهده هما وحدهما سبب غناه ، ومن ثم يدعي انه غير مسؤول عما ينفق وعما يمسك ، وغير محاسب على ما يفسد بالمال وما يصلح ، غير مهتم بالله تعالى ولا مكترث بغضبه أو رضاه [1] .

والإسلام يعترف بالملكية الفردية ، ويقدر الجهد الفردي الذي يبذل في تحصيلها من وجوه الحلال ، ولا يهون من شأنه ولا يلغيه ، ولكن في الوقت ذاته يفرض منهجا معينا للتصرف فيها كما يفرض منهجا لتحصيلها وتنميتها ، وهو منهج متوازن لا يحرم الفرد ثمرة جهده ، ولا يطلق يده في الاستمتاع به حتى الترف ، ولا في إمساكه حتى التقتير ، كما يفرض للجماعة حقوقها في هذا المال ، وهو منهج واضح الملامح متميز السمات .

ولكن قارون لم يتبع ذلك المنهج ولم يستمع لنداء المصلحين من قومه ، ولم يشعر بنعمة ربه ، واعرض عن هذا كله في استكبار لئيم ، وبطر ذميم .

ومن ثم جاءه التهديد الإلهي ردا على قولته الفاجرة المغرورة : فان كان ذا مـــال وذا قوة فقد اهلك الله من قبله أجيالاً كانت اشد منه قوة وأكثر مالا ، وليعلم انه هو وأمثاله من المجرمين ، أهون على الله حتى من أن يسألهم عن ذنوبهم ، فليسوا هم الحكم ولا هم الأشهاد .

وجاء يوم خرج فيه قارون على قومه في زينة عظيمة ، وتجمل باهر من مراكب وخدم وحشم ، مريدا بذلك التعالي على الناس ، وإظهار العظمة ، وهي صفات بغيضـــة تقوض كيان المجتمع ، وتفسد نظمه ، وتفرق شمل الأمة ، وتقسمها إلى طبقات متناحرة ، وفي ذلك تخاذلها ، وطمع العدو في امتلاك ناصيتها .

وهذا ما يحمل تحذيرا لنا وايما تحذير ، فكثير ممن يظهرون النعم أنمـــا يريـــدون التعالي والتفاخر ، وكم من مترف يقيم الزينات ويصنع الولائم لعرس أو مـــأتم لا يريـــد بذلك إلا إظهار ثرائه ، وسعة ماله بين عشيرته ؛ فيكون قارون زمانه ، وتكون عاقبتـــه ضياع ما أوتيه من مال ، ويذهب الله ثراءه ، ويجعله عبرة لمن يعتبر .فالكتاب الكريم ما قص علينا هذه القصص إلا ليرينا أن الكبرياء والتعالي يلحقان الوبال بصاحبهما في الدنيا قبل الآخرة .

**وقد انقسم الناس أمام غنى قارون إلى طائفتين :**

طائفة وقفت أمام فتنة الحياة الدنيا ، وقفة المأخوذ المبهور المتهـــادي . وطائفـــة وقفت وقفة استعلاء على هذا كله ، اعتزازا بقيمة الايمان ، والرجـــاء فيمـــا عنـــد الله ، والرغبة في ثواب الله . وتقابلت قيمة المال وقيمة الايمان في كفتي الميزان .

الفريق الأول : افتتن بمال قارون ، وسال لعابهم حسدا وطمعا ، وتنموا لأنفسهم ما كان له ، بينما قام المصلحون من الفريق الثاني بتوعية الناس ، محاولين ردعهم عن مثل هذا التفكير وردهم إلى جادة الصواب ، وبينوا لهم أن الايمان والعمل الصالح أنفس مـــن كل نفائس الأرض وان المال هو الزائل ، وانه لا يعطى هذه المرتبة من القناعة والرضا إلا الصابرون على أمر الله ، وعلى أداء الطاعات واجتنـــاب المحرمـــات ، والرضـــوان بقضاء الله في كل ما قسم من المنافع والمضار، والمنفقون أموالهم في كل ما فيه ســـعادة لهم وللمجتمع ؛ وبذلك يصبحون قدوة صالحة في حفظ مجد أمتهم ورفع اسمها بين الأمـــم

ببذل كل ما فيه نفعها وقوتها وإعلاء شأنها ، وبذا ينالون حسن السيرة بين الناس ، ويلقون المثوبة من ربهم[1] .

وتتدخل القدرة الإلهية لتحسم الموقف ، ولتخسف الأرض بقارون وماله ، ليصبح عبرة للناس في لحظات قلائل ، ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ ﴾ هكذا في لمحة خاطفة هوى في بطن الأرض ، التي علا عليها واستطال فوقها جزاء وفاقا ، وذهب ضعيفا عاجزا لا ينصره احد ، ولا ينتصر بجاه ولا مال ، وهوت معه الفتنة الطاغية التي جرفت بعض الناس ، ثم ردتهم إلى الله ، وكشفت عن قلوبهم قناع الغفلة والظلال .

وفي تلك اللحظة العصيبة استغاث قارون بموسى عليه السلام ليسأل الله أن يرحمه ، اخرج عبد بن حميد عن عكرمة رضي الله عنه قال : لما خسف بقارون ، وكان موسى عليه السلام قريبا منه قال : يا موسى ! ادع ربك يرحمني فلم يجبه موسى ، فأوحى الله إليه : ((استغاث بك فلم تغثه ، وعزتي وجلالي لو قال : يا رب لرحمته)) .

فلما خسف الله بقارون الأرض ، أصبح قومه يقولون : إن كثرة المال والتمتع بزخارف الدنيا ، لا تدل على رضا الله على من اوتيها ، فالله يعطي ويمنع ، ويوسع ويضيق ، ويرفع ويخفض ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة ، لا معقب لحكمة ؛ وقالوا: لولا لطف الله لخسف بنا ، لأننا وددنا أن نكون مثله .

لقد أيقن القوم أن الكافرين لا يفلحون ، وقارون لم يجهر بكلمة الكفر ، ولكن اغتراره بالمال ، واعتزازه بما عنده من العلم ، جعل الناس يسلكونه في عداد الكافرين ، ويرون في هلاكه أمارة على هلاك الكافرين .

ويسدل الستار على هذا المشهد ، وقد انتصرت القلوب المؤمنة بتدخل القدرة الإلهية العادلة ، ورجحت قيمة الإيمان في كفة الميزان ، ويأتي التعقيب في وقته المناسب: تلك الدار الآخرة التي تحدث عنها الذين أوتوا العلم ، فجعلها الله تعالى للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا ، فلا يقوم في نفوسهم خاطر الاستعلاء على غيرهم ، ولا يهجس في قلوبهم هاجس الاعتزاز بذواتهم ،إنما يتوارى شعورهم بأنفسهم ليملأها الشعور بالله ومنهجه في الحياة . ورد في الأثر : ((يا ابن ادم ! كف عن محارم الله تكن عابدا ، وارض بما قسم الله لك تكن غنيا ، وأحسن مجاورة من جاورك من الناس تكن مسلما ، وصاحب الناس بالذي تحب أن يصاحبوك به تكن عدلا ، وإياك وكثرة الضحك فان كثرة الضحك تميت القلوب ، انه كان بين أيديكم أقوام يجمعون كثيرا ويبنون شديدا ، ويأملون

بعيدا ، فأين هم ؟ أصبح جمعهم بورا ، وأصبح علمهم غرورا، وأصبحت مساكنهم قبورا! والعاقبة للمتقين الذين يخشون الله ويراقبونه ، ويتحرجون من غضبه ، ويبتغون رضاه . وفي الدار الآخرة يقع الجزاء كما كتب الله على نفسه ؛ الحسنة بأضعافها وبما هو خير منها ، والسيئة بمثلها رحمة بضعف الخلق وتيسرا عليهم )) [1] .

**والخلاصة :** إن قصة قارون هي نموذج يتكرر كل يوم ، وفي كل يوم نسمع عن كثير ممن انهارت ثرواتهم بين عشية وضحاها ، والله تعالى يعاقب المفسدين بأشكال مختلفة ، فإذا لم يأخذ المال منهم ، أخذهم إليه ، وترك ما لهم لغيرهم يتصرفون به حسب مشيئتهم ، وفي ذلك موعظة حسنة وذكرى لأولي الألباب .

## الخاتمة

بعد هذه الجولة في كتابة البحث نستطيع أن نوجز ما توصلنا إليه في أهم الدروس الآتية :

(الدرس الأول)

1. أنها دعوة وبيان للناس جميعا ، لسبر أغوار التاريخ ، والاستفادة من تجارب من سبق من الأمم والحضارات بدراستها وفهمها ، وتحذير لهم من الأكفاء بالتاريخ ، كسجل للقصص والروايات ، لتحصيل التسلية والمتعة فقط ، فما كان التاريخ لدى العقلاء الحكماء مجرد قصص تروى ولا حكايات تحكى ، إنما هو مورد ثَّر للعلم والمعرفة والاعتبار .

2. لا تبديل لكلمات الله تعالى على مر العصور ، وقد سعد من اخذ بها وشقي من اعرض عنها .

3. المؤمن عزيز بالله ، سعيد بتأييده ، وقد وعد الله المؤمنين بالتفوق ، الأخلاقي والعلمي والحضاري ، على كل الأمم البعيدة عن طريق الإيمان العلمي .

4. لقد حدد الله تعالى لجميع الأمم طريقا تسلكه لتصل إلى النجاح والفلاح ، وأول خطوات هذا الطريق هو الصبر على المشقة التي يكابدها المؤمن ، في سبيل تطبيق قوانين الله تعالى على الأرض ، وتحمل ما يلاقيه في سبيل ذلك من إيذاء الناس ، وهذا الطريق واحد لا يتبدل بتبدل الأزمان والأجيال .

5. لا بد للناس من مواجهة الاختبار الإلهي على اختلاف أصنافهم وألوانهم ، وعلى المستوى الفردي والجماعي ، حتى يميز الخبيث من الطيب وتظهر فضائل الأخيار ، فيتحدد وجود فئة مختارة من الذين بذلوا المال ، واسترخصوا كل شيء حتى أرواحهم في

سبيل الله ، فكان منهم الشهداء الأبرار في ساحات القتال ، وكان منهم الشهود على رقي أممهم وعلو منازلها بتطبيق تعاليم الله بالشكل الأمثل[1] .

(الدرس الثاني)

1. لا يمكن للمشاهدة أن تعطي ثمارها ، إلا إذا اقترنت بالتروي والتبصر والاستيعاب ، وان استيعاب الدروس التاريخية يعني دراسة الوقائع والأحداث بتمعن وتفكر ، وها هو القران الكريم يوجه لنا دعوة للدراسة العلمية الجادة ، المبنية على تحليل الأمور لاستخراج النتائج المقرونة بالأسباب والمسببات ، للحصول على المواعظ والعبر من هذه الدراسة .

2. إن مصرع الأجيال الغابرة ، التي مكنها الله في الأرض ، وأعطاها من أسباب القوة والسلطان ، وأغدق عليها من الرزق الوفير ، ثم خرجت عن قوانين الله وتعاليمه المسعدة، والمؤدية إلى نجاحها الأخلاقي وازدهارها الحضاري ، فأخذها الله عز وجل بتقصيرها أو بجبروتها ، وأنشأ من بعدها جيلا أخر ليتابع بناء الأرض وإصلاحها ، وهكذا هي دورة الحياة [1] .

(الدرس الثالث)

1. إن تاريخ الغابرين يبقى شاخصا وموحيا يتحدث بالعبر وينطق بالعظات. فإذا كانت القلوب مبصرة جاشت بالذكرى والعبرة ، وجنحت إلى الإيمان لتتحاشى ما حصل لغيرها نتيجة الكفر والجحود [2] .

2. القلب مركز للطاقة، إذا أحسن المرء تغذيته بنور الله، تفتح ووعى ، وعملت خطوطه لتأخذ الهداية عن الله وتمنحها لعباده ، وصقلت عدساته فصارت ترى بنور الله ، وتبصر حقائق الأشياء ومراد الله تعالى فيها فتتبعه بصدق ويقين .

(الدرس الرابع)

1. يجب أن تزيد نسبة الإيمان دائما على مقدار الغنى والثروة لدى الإنسان ، لئلا يطغى حب المال على نفسه فيفسدها ويهلكها . لذلك فكلما ازداد غناك ، كلما وجب عليك أن تزيد من خشيتك لله تعالى وافتقارك إليه ، والإكثار من الصدقات ، لأنه في لحظة واحدة من التهاون والإهمال ، تتصلب عواطفك فجأة وتتحجر ، وتتحكم فيك الأنا والأنانية ، ويبدأ بغيك وتسلطك على من حولك دون أن تدرك بشاعة ما صرت إليه .

2. إن مثيلات قصة قارون تتكرر على مدى الأيام والعصور ، ولعل في محيط كل منا قارون ، علا وبغى فقصمه الله تعالى . فليكن ذلك عبرة لنا وسببا لاتخاذ الحيطة والحذر قبل أن نهلك بما سعينا لكنزه والإكثار منه .

3. لم يحارب الإسلام تجميع الثروات ، بل حارب إساءة استعمالها واستعلاء أصحابها ، ولو أنهم أدوا ما عليهم من الواجبات ، لكسبوا الحسنة والرضا في الدنيا والآخرة معاً [3] .

## الهوامش :

[1] لسان العرب لابن منظور الأفريقي:مادة(عبر) ، مطبعة دار نشر بيروت ، ط1، 531/4 .

[2] التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي ، دار الفكر دمشق ، 73/1 .

[3] لسان العرب : مادة ( أرخ) ، 4/3 .

[4] التوقيف على مهمات التعاريف للمناوي: 155/1 .

[5] أبجد العلوم : تأليف صديق بن حسن قنوجي ، مطبعة دار الكتب العلمية ، 137/2 .

[1] لماذا ندرس التاريخ : تأليف إبراهيم بن سعد الحقيل ، ص 96 .

[2] الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، مطبعة دار الكتاب بيروت ، 7/1ــ8 .

[3] المقدمة لابن خلدون ، مطبعة دار الكتاب بيروت ، ص6 .

[1] سورة هود آية 89 .

[2] سورة الروم آية 9 .

[3] سورة يونس آية 90 .

[4] سورة النازعات آية 24 .

[1] سورة هود آية 102 .

[2] سورة التوبة الآيتين 69 ، 70 .

[3] لماذا ندرس التاريخ : ص 97 .

[4] سورة الأنبياء آية 92 .

[1] الكامل في التاريخ : 8/1 .

[2] الحديث (( حسن صحيح )) ، رواه الترمذي برقم (2378) ، دار أحياء التراث العربي بيروت .

[3] الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبعة دار صادر – بيروت : 220/5 .

[4] سير أعلام النبلاء : للإمام الذهبي ، مطبعة دار الكتاب بيروت ، 140/5 .

[5] الإعلان بالتوبيخ : للإمام السخاوي ، طبعة الكتب العلمية ، ص33 .

[1] الكامل في التاريخ : 8/1 .

[2] موسوعة التاريخ الإسلامي : الدكتور احمد الشلبي ، الطبعة الخامسة ، 36/1 .

[3] سورة الشعراء : الآيات 128 ــ 131 .

(4) لماذا ندرس التاريخ : ص99 .

(5) سورة البقرة آية : 153 .

(6) الكامل في التاريخ : 8/1 .

(1) الإعلان بالتوبيخ : ص36ــ37 .

(2) سورة يوسف آية 111 .

(3) وفيات أعيان لابن خلكان ، مطبعة دار الكتاب بيروت ، 126/3 .

(4) الطبقات الكبرى : 121/3 .

(1) سورة إبراهيم آية 7 .

(2) الإعلان بالتوبيخ : ص36ــ37 .

(1) سورة آل عمران الآيات : 137 ــ140 .

(1) ينظر أنوار التنزيل للبيضاوي ، مطبعة دار الفكر بيروت ، 96/2 . والجامع لإحكام القران للقرطبي، دار الكتب العلمية بيروت ، 218/4 .

(2) سورة الأنبياء آية 105 .

(1) الحديث (( صحيح )) ينظر صحيح البخاري ، مطبعة دار كثير اليمامة بيروت ، 1028/3 .

(2) ينظر أرشاد العقل السليم لأبي السعود : مطبعة بيروت ، 89/2 . وآيات قرآنية عرض وتحليل : إعداد غازي صبحي ، مكتبة الأسد ، 508/2 .

(3) العجاب في بيان الأسباب : للإمام شهاب الدين احمد ، مطبعة دار ابن الجوزي الدمام ، 757/2 .

(1) سورة الأنعام آية 6 .

(1) ينظر أرشاد العقل السليم 110/3 . ومعالم التنزيل للبغوي ، مطبعة دار المعرفة بيروت ، 85/2 .

(2) سورة الحج آية 46 .

(1) الفردوس بمأثور الخطاب للهمذاني ، دار الكتب العلمية بيروت ،65/5 . وإرشاد العقل السليم 111/6 .

(2) الدر المنثور في التفسير المأثور للسيوطي ، مطبعة دار الفكر بيروت ، 61/6 .

(3) رواه البيهقي في شعب الايمان ، دار الكتب العلمية بيروت ، 127/2 .

(4) سورة القصص الآيتين 76ــ 77 .

(1) ينظر الدر المنثور : 441/6 . وإرشاد العقل السليم : 24/7 .

(2) الحديث ((صحيح)) رواه البخاري عن عون بن أبي جحيفة عن أبيه ، 694/2 .

(1) ينظر تفسير القران العظيم لابن كثير ، دار الفكر بيروت ، 400/3 . ومعالم التنزيل : 454/3 .

(1) الجامع لأحكام القران : 312/13 . وزاد المسير : 240/6 .

(1) ينظر الدر المنثور : 18/8 . وتفسير النسفي ، مطبعة بيروت ،246/3 . وآيات القرآنية : 517/2 .

(1) بنظر مناهل العرفان في علوم القران : محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الفكر بيروت ، 57/5 .

[1] بنظر السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد : تأليف د. عبد الكريم زيدان ، مؤسسة الرسالة ، ص21 .

[3] ينظر لجامع لأحكام القران : 23/8 .

(3) ينظر إرشاد العقل السليم : 24/7 .

## المصادر والمراجع

**القران الكريم**

1. أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم : تأليف : صديق بن حسن قنوجي مطبعة دار الكتب العلمية .
2. أرشاد العقل السليم إلى مزايا القران الكريم تأليف : محمد بن محمد العمادي أبو السعود (ت951هـ) بيروت .
3. الإعلان بالتوبيخ : للإمام السخاوي ، طبعة دار الكتب العلمية .
4. أنوار التنزيل وأسرار التأويل : تأليف ناصر الدين أبي الخير عبد الله بن عمر بن محمد بن علي البيضاوي(ت685هـ)،تحقيق عبد القادر عرفات ، مطبعة دار الفكر بيروت 1996م
5. آيات قرآنية ومضات من القران الكريم عرض وتحليل : أعداد وتنفيذ غازي صبحي آق بيق مكتبة الأسد 1998م .
6. تفسير القران العظيم : للإمام أبي الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير المشقي (ت774هـ) دار الفكر بيروت .
7. تفسير النسفي : للإمام الجليل العلامة أبي البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود النسفى مطبعة بيروت .
8. التوقيف على مهمات التعاريف : تأليف محمد عبد الرؤوف المناوي (1031هـ) ، تحقيق الدكتور محمد رضوان ، دار الفكر المعاصر دمشق الطبعة الأولى 1410هـ .
9. الجامع لأحكام القران : لأبي عبد الله محمد بن احمد الأنصاري القرطبي (ت671هـ) دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى 1988م .
10. الدر المنثور في التفسير المأثور : لجلال الدين السيوطي الطبعة الأولى 1983م دار الفكر بيروت .
11. السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية : تأليف د. عبد الكريم زيدان ، طباعة مؤسسة الرسالة .
12. سنن الترمذي : للإمام أبي عيسى محمد بن عيسى الترمذي السلمي (ت279هـ) دار أحياء التراث العربي بيروت .
13. سير أعلام النبلاء : الذهبي ، مطبعة دار الكتاب بيروت .

14. شعب الإيمان : للإمام أبي بكر احمد حسين البيهقي (ت458هـ) ، تحقيق محمد سعيد ، دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى (ت1410هـ) .
15. صحيح البخاري : تأليف الإمام محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري (ت256هـ) ، تحقيق مصطفى ديب البغا ، مطبعة دار كثير اليمامة بيروت الطبعة الثالثة 1987م .
16. الطبقات الكبرى لابن سعد ، طبعة دار صادر – بيروت ، سنة 1968 م .
17. العجاب في بيان الأسباب: أبو الفضل شهاب الدين احمد بن علي (ت 852هـ) ، تحقيق عبد الحكيم محمد الأنيس ، مطبعة دار ابن الجوزي الدمام ، الطبعة الأولى .
18. الفردوس بمأثور الخطاب : أبي شجاع الديلمي الهمذاني ، دار الكتب العلمية بيروت .
19. الكامل في التاريخ : لابن الأثير ، مطبعة دار الكتاب بيروت .
20. لسان العرب : للإمام محمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري (ت711هـ) مطبعة دار نشر بيروت الطبعة الأولى .
21. لماذا ندرس التاريخ : إبراهيم بن سعد الحقيل ، نشر في مجلد البيان ، السنة العشرون عدد 216 ، 2005م
22. معالم التنزيل : للإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوي ، مطبعة دار المعرفة بيروت .
23. مقدمة ابن خلدون : لابن خلدون ، مطبعة دار الكتاب بيروت .
24. مناهل العرفان في علوم القران : تأليف محمد عبد العظيم الزرقاني ، دار الفكر بيروت
25. موسوعة التاريخ الإسلامي : الدكتور احمد الشلبي ، الطبعة الخامسة .
26. وفيات الأعيان : لابن خلكان ، مطبعة دار الكتاب بيروت .